محمد كرد علي : التراثي والمجدّد

أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

أقام مجمع اللغة العربية بدمشق حفلا تذكارياً بمناسبة انقضاء خمسين سنة على وفاة مؤسسه الأستاذ محمد كرد علي.

وقد دعي الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح لحضور هذا الحفل التذكاري والقى بهذه المناسبة محاضرة ننشرها فيما يلي:

عاش محمد كرد على مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق في عهدين متباينين: العهد العثماني، وما بعد الاستقلال تتوسطهما الحرب العالمية الأولى. وكانت هذه الحرب، كما هو معلوم، انتهت إلى تغير جذري شامل لخارطة العالم وخاصة البلدان العربية، وآذنت بما تعانيه هذه البلدان الآن من المشاكل المهولة في الميدان السياسي والاجتماعي، فكانت نهايتها بداية لنكبة الشعب العربي لا نرى لها إلى الآن نهاية. وكان لهذا الرجل الفذ مواقف سياسية مشرفة في أثناء هذه الفترة

وناهيك ما تركه للشعب العربي من مجمع للغة العربية وهو أقدم المجامع العربية، وهو موضوع اعتزاز لجميع العرب لا لسورية وحدها. وكان لهذا الرجل العبقري مساهمة عظيمة في إحياء التراث العربي الإسلامي من جهة ومساهمة أخرى لا تقلّ أهمية عن إحياء التراث وهو عمله الدائب كباحث وككاتب وخاصة في كتاباته الملتزمة من أجل تجديد التصوّر القديم للكثير من الأمور الاجتماعية والحضارية التي بقيت منذ قرون على ما كانت عليه، وكان له في ذلك جرأة كما كانت له جرأة في مواجهة الحكام العثمانيين، ولم يتوقف لحظة حتى أحس أن الانشغال بالعلم والتأليف قد يكون أفضل بالنسبة للعالم الذي أخذ قسطه من الكفاح وبلغ من النضج ما يكفيه.

امتاز الأستاذ كرد علي بحبه العظيم للثقافة العربية والأدب العربي خاصة، ويُذكر أنه حفظ عن ظهر قلب الكثير من شعر المتنبي ومقامات الحريري، وقضى حياته في الصحافة كمناضل يكافح بقلمه لتحرير بلاده وإعلاء كلمة العرب وإحياء الثقافة العربية، وقد نشر له العدد الكبير من المقالات والدراسات في عدة صحف ومجلات مثل المقتطف والمقتبس، وهو الذي أنشأها، والمؤيد والتحرير اليوميتين وغيرهما. واتصل بمصر في ذلك الوقت بكبار العلماء والأدباء كالمويلحي (الأب والابن) والشيخ محمد عبده وإبراهيم اليازجي وحافظ إبراهيم وجرجي زيدان ورشيد رضا وغيرهم، وكان صديقاً حميماً للشيخ طاهر الجزائري الدمشقي.

ومما امتاز به أيضاً في حياته هو أنه تعلم اللغة الفرنسية، في شبابه

وأتقنها بحيث استطاع أن يترجم عدداً من القصص الفرنسية واهتم كثيراً بالأدب الفرنسي وله مقالات في الآداب الأجنبية. فأثر ذلك فيه بكيفية خاصة ولكنها كانت إيجابية.

وما نقرؤه فيما كتبه عن الإسلام والحضارة العربية فما يزال وسوف يبقى مفخرة للمسلمين، إذ استطاع مؤلفه أن يأتي بمعلومات قد لا نجدها في كتب التاريخ الحديثة أو حتى القديمة، وتدل على اتساع البحث وعمقه، وقد اعتمد في ذلك على عدد ضخم من المراجع القديمة والحديثة بالعربية وباللغات الأجنبية ولم يترك أي مصدر وأي مرجع إلا واطلع عليه. وكذلك فعل بالنسبة إلى أعظم ما حرره وهو كتاب «خطط الشام» في ستة مجلدات، وكان قد حظي بالمكوث في المكتبة الخاصة للعالم الإيطالي الأمير كايتاني فجمع الكثير من المعلومات الخاصة بتاريخ الشام. وهذا عمل عظيم جداً.

أما فيما يخص الأدب العربي فقد ساهم الأستاذ كرد علي في تعريف رسائل ابن المقفع، وعبد الحميد الكاتب، وامتاز كناقد في كتابه: «أمراء البيان» وهو من أبرز كتبه الأدبية. وفيه من الآراء والأحكام السديدة العميقة ما لم يسبق إليه إطلاقاً.

ماذا عسانا أن نقول عن هذا الإنتاج الفكري العظيم (كمًّا ونوعاً وتأثيراً) وخاصة فيما جاء به من أفكار تجديدية مع مواقف إزاء التراث العربي الإسلامي تفارق تماماً حركات التجديد التي ظهرت في زمانه في المشرق العربي. لقد جمع هذا العالم المناضل بين الدعوة إلى التجديد في

التفكير وفي منهجية البحث في ميادين مختلفة وفي الاعتقادات القديمة الجامدة وحول أسلوب الحياة وغير ذلك، وبين المحافظة على التراث الفكري العربي الإسلامي، وقد يبدو ذلك كالمحاولة للجمع بين النقيضين وليس الأمر كذلك.

لقد عاش محمد كرد علي في زمان حافل بالحوادث، وكان العرب والمسلمون قد فوجئوا وهم في سبات عميق منذ قرون بغزو عسكري من كل جهة وفي كل مكان ترفرف فيه راية الإسلام: الجزائر في عام 1830، وتونس في عام 1888، والمغرب في عام 1912، ومصر والسودان في نهاية القرن التاسع عشر، والشام والعراق بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت هذه البلدان في منتهى الضعف في الميادين التي تجعل الدول تقوى بعضها على بعض: الثقافة عموماً، والمستوى العلمي والتكنولوجي خاصة. فحاول المسلمون أن «يغيّروا ما بأنفسهم» ليغير اللّه ما بهم من الهوان والتقهقر. فدعا الكثير إلى التجديد الجذري حتى في أساليب الحياة وحصل ذلك بالفعل في تركيا بكمال أتاترك، وحاول الكثير أن يدخلوا ذلك فيما توارثه العرب من أفكار ومعتقدات فراحوا يشكون في صحة كل ذلك، وخاصة فيما وصل إلينا من الأدب والعلوم الإنسانية، فظهرت حركات تدعو إلى الشك في وجود الشعر الجاهلي ثم في صحة ما بناه النحاة العرب من القواعد لا يُميّزون فيه بين الأصيل الذي ظهر على يد الخليل وأتباعه، والرثّ الذي وصل إلينا من العصور المتأخرة، وتقبلوا في كل ذلك ما يقوله الغربيون وخاصة المستشرقين من دون تحفظ

إطلاقاً. نعم لقد ردّ على هؤلاء الكثير من العلماء الفضلاء في ذلك الزمان بالذات، وكانت الردود جديّة وموضوعية في غالب الأحيان ثم اختفى هؤلاء العلماء الذين عاصرهم كرد علي وجاءت أجيال أخرى اشتد انقسامها إلى مجدّدين ومحافظين أكثر مما كانوا، فصار الأولون أميل إلى استئصال كل ما هو قديم مهما كان، ومال الآخرون إلى المحافظة على كل قديم مهما كان. وبهذا يمتاز زماننا الذي نعيش فيه.

فكيف كان موقف الأستاذ كُرد علي من ذلك في زمانه ؟

كان وحيد نسجه في ذلك. فإنه لم يكن وسطاً بين الموقفين المتطرفين بل أكثر وأحسن من ذلك، لأنه جاءنا بمواقف جديدة لا تمت بسبب إلى المجددين ولا إلى المحافظين، وما كان يشاركهم في الحقيقة إلا في غيرته على التراث والمحافظة عليه وغيرته في نفس الوقت على تطوير الأفكار وأساليب التفكير. إلا أنه كان لا يريد من المحافظة إلا على النافع من القديم، ولا يريد من التجديد إلا الذي يأتينا بالنفع العميم. فموقفه هذا يظهر بوضوح تام في الكثير مما كتبه من المقالات، نذكر منها ما جاء في كتابه: القديم والحديث (أول مقال في هذا الكتاب بهذا العنوان). يقول في مقال «العلم الصحيح» صدر مرة ثانية في هذه المجموعة: «ونشأت ناشئة لم تدر من العلم... غير قشوره... ينبذون كل ما ليس لهم علم به من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم في مقام واحد» (23 ـ 24) «وفاتهم أن ما يسوغ في الغرب لا يتم في الشرق... وأن من العقل أن لا يُنبذ ذاك القديم بل يُرجع إلى الأصيل القليل ويؤخذ النافع منه ويترك ما

عدا ذلك من تخريف المخرّفين وضلالات المبتدعين» (24) «ما خلا عصر من عصور الإسلام من أعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون كل ما لا يألفون» (45) «إذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالأولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأى كبار علماء الإسلام من القديم» (5).

إن الأستاذ محمد كرد علي عرف كيف ينبغي أن يقرأ التراث ولم يجعل هذا التراث كتْلة واحدة كما يفعله المحافظون. قال: «إن التاريخ لم يخلُ من وجود عقلاء في كل دور من أدواره... وقد قل عددهم كثيراً في هذه الديار... وصار العلم أشبه شيء بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل... وللجهل الكلمة النافذة في الهيئة الاجتماعية إلى أن جاء القرنان التاسع والعاشر وما يليهما من قرون الهجرة، وهي العصور المظلمة من تاريخ الإسلام... اعتبر ذلك بما تتلوه في تراجم أعيان العلماء في هذه القرون فإنك لا تراها تتعدى الأفعال والآراء، وأهل كل جيل يقدّسون قول من سلفهم ولو ببضع سنين. نعم وإنك لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت...» (21 ـ 22).

إن كل المثقفين يعرفون ذلك: من وجود عصور الانحطاط في الحضارة وتوقف الإبداع وانتشار التقليد بسبب ذلك، وترداد ما قاله الشيخ دون أي زيادة اللهم إلا التعليق المعقد الغامض (ونستثني من ذلك أفراداً من العلماء القلائل في هذه العصور وهم شواذ في زمانهم). ومع ذلك لا يمتنعون من الاعتماد في دراستهم في دور العلم العتيقة، على النصوص

التي ظهرت في هذه العصور فيما يخص مثلاً علوم العربية والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية.

وفضل محمد كرد علي في إحياء التراث ينحصر في الاهتمام بالنسبة إلى الأدب مثلاً والالتفات إلى المنشئين الذين أبدعوا إبداعاً وهم الكتاب الذين ظهروا في صدر الإسلام وبداية الخلافة العباسية، وتفطّن إلى نصوصهم التي أظهروا فيها براعة عجيبة في البيان لا من حيث الشكل فقط بل حتى في أفكارهم البديعة التي لم يسبقوا إليها، ومنها العلمية، وذلك مثل تعليقه على كلام الجاحظ: «ودعا إلى التفكير ودعا إلى الملاحظة قائلاً: «لا تشفيني إلا الملاحظة ودعا إلى الشك ومن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يُبصر..» يقول الجاحظ: «اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها تعرف بها مواضع اليقين الموجبة له وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلماً...» (أمراء البيان، 56) ونقل عنه أيضا: «وقد ابتُلينا بضربين من الناس ودعواتهما كبيرة، أحدهما أن يبلغ من حبِّه للغريب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين... ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُرف لا يقف على التصحيح والتمييز فهو يدخل الغث في السمين والممكن في الممتنع... والصنفُ الآخر هو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم إلا من خاف لتقذُّر من الكذب» (358). فهذه نصوص لا سبيل إلى وجودها في كتب المتأخرين، فهذا فضل محمد كرد علي على غيره من العلماء في زمانه من محافظين يجهلون الكثير مما تركه المبدعون من علمائنا وتمسكوا بثقافة الشروح والحواشي ليس إلا، وكما أن

فضله على المجددين الذين لم يعرفوا شيئاً من تراثهم الأصيل مع أنهم يشدون شدواً قليلاً من الثقافات الأجنبية.

وبصدد ما نقله عن الجاحظ من الاعتماد على الشك في البحث العلمي، وترك حسن الظن إذا لم يثبت على شيء من النقل أو العقل، فإننا قد لاحظنا عدم ارتياحه لما ينقله بعض المؤلفين ممن أولع بحكاية الغريب من الأخبار والطرف المشبوهة، فقال عن عبد اللّه بن المقفع ومن كان يجتمع معه على الشراب وقول الشعر: «وحكى ما قاله عنهم صاحب الأغاني: «وكلهم متهم في دينه». فقال: «هذه رواية صاحب الأغاني عن الجاحظ في اتّهام أهل ذلك المجتمع بدينهم ولعل ذلك كان من ابن المقفع قبل أن ينتحل الإسلام. **ونحن نشك كثيراً في روايات صاحب الأغاني ذلك لأنه كان مستهتراً ويحب أن يصف بالاستهتار كل عظيم ولو كان ممن ثبتت عفته وطهارته»** (104). فهذا عندنا فضل آخر كبير جداً حتى بالنسبة إلى أهل زماننا. فكأنه يناقض بهذا الكلام كل الذين ما يزالون يعتمدون بالدرجة الأولى على كل ما يجدونه في الأغاني من حكايات ينفرد بروايتها أبو الفرج (وقد استعظم بعضهم أن يُكذِّب الأصفهاني في بعض ما يحكيه قائلاً: هذا خبر لا نعثر عليه في أي كتاب وصل إلينا فكيف نستهين به!).

هذا ومن العلماء المحدثين من تأثر بما يعرفه من الثقافة الغربية بمعرفته للغات الأجنبية وهو لا يعرف من التراث إلا هذا الذي وصل إلينا من المتأخرين، إذ لم يدرس من النصوص إلا هذه التي اعتمد عليها في

التعليم التقليدي كعلوم العربية، فلا يدرس فيه إلا ألفية ابن مالك وشروحها وشروح التلخيص وغير ذلك، فهذا الذي يدفع الدارسين لهذه النصوص من الذين يثورون على القديم إلى التمسك بما جاء عند المستشرقين وغيرهم في هذه العلوم أو في اللسانيات الحديثة من دون هضم كاف ودون أي تمحيص. يقول كرد علي: «ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم فننظر ما قالوه من ذلك فإن كان صواباً قبلناهُ منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبّهنا عليه» (مقال: اللغات الإفرنجية، ص 56).

إن الاتجاهات التي لمسناها في السلوك العلمي الموضوعي للأستاذ محمد كرد علي وبالخصوص في الاهتمام بالمبدعين من علمائنا وكُتّابنا قد نجده عند بعض الفطاحل من المصلحين في زمان كرد علي نفسه وقبله بقليل، وقد وجدنا له صدى عند الذين تأثروا بهم من المصلحين في المغرب العربي مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس، وما أزال أذكر وأنا شاب أدرس العربية في إحدى المدارس التي أسسها أتباع ابن باديس: «عليك بأمهات الكتب». وكانت نصيحة انتفعتُ بها، إذ لولا ذلك ما استطعت أن أطلع على «الجديد» في كتب المتقدمين! «الجديد» الذي لم يعرفه المتأخرون ولا الغربيون.